

## ملاحظات على قصيدتي نزار قباني وسعيد عقل

- ازهر البرق في انامك الخمس  
وطارت للقرب عصفورتان  
- ان تلك الاوراق حقل من القمح  
فمن اين تبدأ الشفتان  
وفي هذه الابيات لا تحول البساطة وانوضوح دون  
المتانة في التراكيب والغنى في التصوير والتجنيح في  
الخيال . فشطرة « ازهر البرق في انامك الخمس » مثلا  
تتألف من مفردات شديدة البساطة ، ولكنها بالتزاوج  
السعيد تخلق استعارة مذهشة تصور النار التي كانت  
تحملها ريشة طه حسين في كتابات التحدي والاحتحام .  
وتشبيه اوراق صاحب « الايام » بحقل من القمح ، بهذه  
العفوية البسيطة ، يبعث صورة نابضة ليبدد تنهافت عليه  
العصافير ولا تدري اين تنقد جوبه المنثورة .. ثم تتجسد  
تلك المناقير بشفاه القراء التي تلمس الاحرف عن  
السطر ..

هذه النماذج تحمل اذن الى البساطة اللغوية  
البعيدة عن التسطح ثراء الصور النابضة بالالوان . فهي  
لذلك سهلة التلقي ، ولكنها عميقة التأثير .  
اما قصيدة سعيد عقل فلغتها مقلع احجار تعوزه  
ذائقة الهندسة لدى التركيب . ولا يفهم متذوق الشعر  
كلف هذا الشاعر بالتعقيد وانصرافه الكلي عن البساطة ،  
من غير ان يلزم عن ذلك اي عمق . فانت اذا فككت هذه  
الاحجار وحللت مفاصلها خرجت بصور قد تكون ميزتها  
الاولى المبالفة في الشطحات الخيالية والبلهوانية في  
البناء التركيبي ، ولكن اثرها لدى المتلقي بعيد عن ان يكون  
عميقا . خذ هذه النماذج من القصيدة :

- ذراك ما ذراك ؟ قل ضربا  
هام الجبال غضوب اشعل السحبا  
- ولو لريشة عصر ان تظله  
لكنت كالليل لف المنتهى بابا  
- كما صرعت ، رفعت : الريح آيتها  
ان عصفها هي ، لا ثوب ولا قشبا  
- وشائل بغواها وهم أن لها  
مثل الجناحين رفقا فوق .. واغتربا  
- وما التقى الحسن من لبنان ضج صبا  
بفن مصر تفاوى في الحديد صبا  
- حتى غدت للألى قيلول العقول منى  
وللألى ارتحن لاستفبائهن غبا  
- انزل بقلبي ، بهم الارز يوم أسى  
بالشيخ بالريح ، بالهبّات غب صبا  
- . . . . .

ان تعمد التعقيد في تركيب هذه الابيات النموذجية  
يذهب بكل جمال الشعر والشاعرية . فكيف اذا كان شطح  
الخيال في تماديه يوحى لدى كل صورة بمجانية الفانتازيا  
التي تحرك ذهن الشاعر ؟  
سنحاول هنا ان نستخرج الصور التي ارادها  
صاحبها :

ان ذكرى المحتفى به تذكر الشاعر بغضوب ( قد  
يكون طيرا او انسانا ) ضرب هام الجبل فاشعل السحب .  
وهي صورة لا جدّة فيها ، اذ ان الغضب الذي يرفع

قرات قصيدتي نزار قباني وسعيد عقل في مهرجان  
تكريم طه حسين في القاهرة . ولست احب ان افيم بينهما  
المقاربه ، وكنتي اجتزىء ببعض الملاحظات والتأملات التي  
اوحاها لي .

1 - تشرب قصيدة نزار قباني كالماء الزلال ،  
وترشف آياتها بعذوبة ، لانها متفجرة من نبع اندفق  
والطبيعية . انها كالشجرة الفضة ، تستمد نسفها من  
تلقائية الجذور السمحاء ، وعفوية الارض المعطاء ، بعيدة  
عن اي تصنع ، وان لم تكن بعيدة عن الصنعة الفنية .

اما قصيدة سعيد عقل فيفص بها الحلق ، ويصاب  
منها اللسان بالتقبض والمرارة . ذلك ان القاريء مضطر  
الى مصارعة عباراتها وصولا الى مقاصدها ، فيكاد ذلك  
يخلف لديه الصداق . ومرد هذا ان الشاعر لا يتوسل الى  
معانيه المفردة الواضحة ولا العبارة اللينة ، فاذا شعره  
مطبوع بطابع التعقيد اللفظي والمعنوي في آن .

نزار قباني ، في هذه القصيدة ، كما في شعره  
السابق ، عموديه وحره ، يعتمد « البساطة » في اختيار  
الكلمة وتركيب العبارة ، وهذه البساطة هي التي خلقت  
له ذلك الرصيد من الشعبية الذي يكاد لا يدانيه فيه شاعر  
عربي معاصر .

على ان تلقائية نزار تتمرّد على اية سطحية ، وبساطته  
لا تتعارض والعمق ، اذا كان العمق غنى الايحاء والشفافية ،  
وهو المطلوب في الشعر . وهذه نماذج من القصيدة تمثل  
لهذه الرؤية :

- ضوء عينيك ام هما نجمتان  
كلهم لا يرى وانت تراني  
- ضوء عينيك ام حوار المايا  
ام هما طائران يحترقان  
- ارم نظارتك .. ما انت اعمى  
انما نحن جوقة العميان

هذه الابيات تتزاوج فيها البساطة والعمق عبر صور  
يفنيها التشبيه الموضوعي والانطباع الذاتي في وقت  
واحد . بل لعل العمق ان يكون ناشئا من التناقض قسي  
الصور : العيان المظلمات والنجمتان . عيون الناس  
الفتوحة التي لا ترى ، وتناك العيان المظلمات اللتان تريان  
( الشاعر ) . ثم ان تشبيه العينين المفلقتين على السواد  
بطائر ينحرفان يبلغ حد الروعة . وفي تصعيد اخر  
للتصوير ، يهتف الشاعر بالعقري الغائب : ارم نظارتك  
... ما انت اعمى ، انما نحن جوقة العميان .

انني اقرأ الان عبارتي الاخيرة التي اردت ان انثر  
فيها بيت الشاعر ، فأجدني وقد استعملت كلماتها كلها ، من  
غير تبديل ولا تحوير ، ولا تقديم ولا تأخير . ماذا اذن ؟  
هذه الكلمات النثرية تتحول فجأة الى كلمات شعرية ،  
في غير ما ضعف ولا تنهافت ، لان البساطة فيها مقترنة  
بصدق العفوية او عفوية الصدق ، وهي التي لا تناقض  
بينها وبين العمق .

- ايها الفارس الذي اقتحم الشمس  
والقى رداءه الارجواني  
- فعلى الفجر موجة من سهيل  
وعلى النجم حافر لحصان



سميد عقل

نزار قباني

\*\*\*

ويدعو بانصر للسلطان  
عند الينا فان ما يكتب اليوم  
صغير الرؤى صغير المعاني  
ونزاه يستغل روح التحدي التي كان طه حسين  
يتحلى بها ليخرج الى فضح التزلف والخنوع لدى فئة من  
الكتاب الجبناء الذين باعوا أنفسهم للشيطان :  
- أنت أرضعتنا حليب التحدي  
فطحنا النجوم بالاسنان  
ايها الفاضل الكبير تأمل  
كيف صار الكتاب كالخرفان  
قنعوا بالحياة شمسا ومرعى  
وأطمأنوا للماء والفدران  
ان اقسى الاشياء للنفس ظلما  
قلم في يد الجبان الجبان

هذه الصيحة التي يدين بها نزار النفاق والتكسب  
وانتزلف تنضاف الى صيحاته الكثيرة السابقة في تعرية  
المجتمع العربي ، فتجعل منه شاعرا في طليعة الشعراء  
الرافضين ، بل الثائرين .

ولكن التصاقه بالواقع ، وانغماسه في اتون الصراع  
الذي يعيشه الوطن العربي انما يبرزان في ذلك النداء  
الذي يطلقه من اجل مصر في محنتها الحالية حين يقول :  
تستبد الاحزان بي فأنادي آه يا مصر من بني قحطان  
تاجروا قبك ساوموك استباحوك وابعوك كاذبات الاماني  
حبسوا الماعن شفاه اليتامي وأراقوه في شفاه الفواني  
تركوا السيف والحصان حزينين وابعوا التاريخ للشيطان  
انه هنا يدين التناقض الفظيع الذي يشل الوطن  
العربي بين فقراءه العاملين من اجل مجده وعظمته ،  
واغنيائه الاسنين في حياة الخنى والمذلة . وهو في هذه  
المفارقة المبكية يتذكر وطنه السوري ووطنه الاخر  
الفلسطيني :

يشترون القصور ، هل ثم شار  
يشترون النساء هل ثم شار  
يشترون الدنيا واهل بلادي  
آه يا مصر ! كم تعانين منهم  
لقبور الابطال في الجولان  
لدموع الاطفال في بيسان  
ينكشون التراب كالديدان  
والكبير الكبير دوما يعاني

صاحبه فوق الجبال ليشعل السحب لا يكتسب بفعل ذلك  
ميزه خاصة تجعل من هذا الغضب او من صاحبه بدعا في  
اليسر . فهي اذن شطحة خيال مجانية لا تقول شيئا . اما  
من حيث المبنى ، فلست اجد اقبح من روي اسنطرد  
الاولى : ضربا . انه يكاد يضرب المتلقي في وجهه ، فيخلف  
لديه ، مند البدء ، النفور والاستهجان !

وصوره البيت اثاني تريد ان تقول : اذا كان لغم  
في عصر معين ان يظل بقيمته واهميته هذا العصر ، فان  
فلمك فيما يظله أشبه بالليل الذي يلف الندر كله ، أي  
ان قيمته واهميته تنسحبان على التاريخ كله فتظلانه  
دون سائر الاقلام والعقربيات ! هل يمكن لخيال شاعر ان  
يفقد ميزان الكلام كهذا الخيال لا اما قافية هذا البيت  
فملصقة به الصاقا ، اذ ما دخل الابهاء او انخوع بهذا  
كله ؟

واما البيت الثالث ، فقد افتقدنا فيه حقا وجه  
الشبه بين الريح التي آيتها انها هي عصفها بالذات  
( وكم هو سقيم قلب التركيب : ان عصفها هي ! ) وبين  
صرعه ورفعته . .

واما الابيات الثلاثة التالية التي تتحدث عن تمثال  
نفرتي الذهبي ، فهي مثقلة بالتركيب المعقدة التي لا  
تستبين فيها الصورة الا بشق النفس ، وتكاد لا تفهم  
بيتها الاخير :

حتى غدت للالى قيلوا انقول مني

وللالى ارتحن لاستغباهن غبا  
بقي اخر بيت من النموذج الذي اوردناه ، وهو -  
ترحيب بطيف طه حسين ان ينزل بقلب الشاعر ، وبهم  
الارز اذا نابه الاسى وبشجر الشيح وبالريح ( وهذه طبعيا  
مجرورة باغراء الجناس ) وبالهبات . . وواضح انه كان  
بوسع الشاعر ان يطيل اللانحة الى ما لا نهاية ، من غير  
ان يزيد شيئا على المعنى العادي المبذول .  
أعود ، عند هذا الحد من الاستشهاد ، الى التأكيد  
بأن التعقيد الذي يلف هذه القصيدة يحرمها من مزايا  
التدفق والعفوية ويشل فيها ، على الصعيد الفني ، إمكان  
الايصال والتلقي . (1)

٢ - اما على صعيد الموضوع ، فتعتبر قصيدة نزار  
قباني شاهدا على العصر الذي يعيشه ، نقصد هنا على  
المجتمع الذي يعيش فيه . وهو شاهد اخر يدل على ان  
هذا الشاعر يمد جذوره في ارض بلاده ، ويفمس قلمه  
في امراضها ويعمل مبضعه في آفاتها .

ان حديث نزار قباني عن سقوط الفكر في النفاق  
السياسي ، مثلا ، موجة عارمة تنبض بالصدق والصراحة :  
سقط الفكر في النفاق السياسي

وصار الاديب كالبهلوان

يتعاطى التبخير ، يحترف الرقص

(1) يقتضيني التجرد ان اقول اني توقفت في هذه القصيدة عند  
ابيات قليلة وجدتها جيدة ، لان الشاعر جرى فيها مع العفوية واليسر  
وابتعد عن التعقيد المعهود ، ومنها قوله في الاشارة الى انطفاء النور  
في عيني طه حسين :

- والليل وحدك تدري اين منبعه ( . . . )

- كذلك انت رمت عينك ليلهما

ثقلا على الشرق عاد الشرق ملتها

- تعلم الجيل من طفل تمر به

أزاهر فترى في وجهه العطب

- فنكتكم الحزن عنه خوف تجرحه

لكنه هو لا يستعذب الكذبا

ان نزار قباني يقتحم الواقع ولا يخشى نبشها وتجريحه وتعرية فضائحه ، فيشارك بذلك في خلق الادب الثوري المناضل الذي هو اليوم طبيعة انتاجنا الحديث ، هذا الانتاج الذي لا تنفصل فيه الهموم الفنية ، في وجدان الاديب ، عن هموم الشعب والمجتمع .  
عما هو موقف سعيد عقل ؟

ان يوسمنا ان بعد فصيده هذه ، بالمقياس نفسه . شاهدا على انقطاع صله الشاعر بمجتمعه الحقيقي ، بل هي شاهد على انه يتسوه هذا الواقع في تسيير من الاحيان حين يكتفى بالتمجيد والتعظيم والتفاخر والمباهاة ، توهمنا منه ان هذه هي الوطنيّة الحقيقية !  
يقول سعيد عقل :

ات معي زهر لبنان وكنت صدى  
ثورة في بنيه تنزل العصبا  
ليست من النار لكن من ارادتها  
تعطي الهنديات نبضا ، تشرب الفضا  
انزل بلبي ، بهم الارز يوم اسي  
بالتسيح باربع ، بالهبات غب صبا  
انزل بما ضج في لبنان من واه  
بالبر لم ينجرح ، بالورد ما انتهب  
بماردين ابوا الا الحياة على  
بمسكين بقرن الدهر مطلبنا  
بجهم ، بضروب العزم في يدهم  
بعولهم للزمان اركض ام انت هبا  
تكن نزلت يبعض الصخر من جبل  
له على المجد فضل المجد ان صعبا

ان « حسن الكرامة » الذي قد ينبعث من هذه الابهات هو ادنى الى ان يكون ضربا من جنون اعظمه حين يتجاوز معاسد الواقع ويفضي عن الافات الكثيره التي تنخر المجتمع اللبناني وتشل فعالياته وتجعله بالطائفية والاقطاع والاقليمية والاستفلال مجتمعا متخلفا لا يقل تخلفا عن اي مجتمع شرقي مريض .

فاذا قيل ان مناسبة لتكريم ذكرى طه حسين لا تحتمل اطلاق اصوات النقد الذاتي والتجريح النفسي ، قلنا ان هذا غير ممتنع بالضرورة .. ولكن تلك المناسبة لا تحتمل كذلك تشويه الواقع والاسترسال مع مرض التفاخر الفارغ الذي يملأ به سعيد عقل اعمدته بعض الصحف اللبنانية منذ سنوات .. واذا كانت المناسبة تحتمل التشويه ببطولات مصر في الحرب في قوله مخاطبا روح طه حسين :

تلك الكرامات في العقل ارتجتك اخا  
تلك البطولات في الحرب ارتضتك ابا  
اذا كان الشاعر يذكر بطولات سيناء وحرب تحريرها ، فكيف يجيز لنفسه ان يتناسى تقاعس لبنان بالدفاع عن ارضه وكرامته ، ولا يذكر الا « الماردين الذين ابوا الا الحياة على » ؟

ان التباهي الزائف الذي جعله سعيد عقل دأبه وديده في كل ما ينتجه يفسد الاجيال اللبنانية اذ يفريها بالقعود والاسترخاء ويزهدها بالكفاح والصراع من اجل مجتمع لبناني افضل . وبهذا يتبدى الشاعر هنا كقوة رجسية تشد البلاد الى وراء .

٢ - اذا كان نزار قباني يدين الواقع العربي الفاسد،

فلانه يملك حسا تاريخيا سليما ، هو الحسن الذي لا يعكر لديه الرؤية الشمولية للتاريخ العربي .  
فهو يشير الى « مسر بني فحطان » والى التاريخ الاسلامي والى الشعراء العرب ، ثم يتحدث باسم مصر عن دورها في صنع التاريخ العربي :  
قد رددنا جحافل الروم عنكم

ورددنا كسرى انوشروان

وحينا محمدا وعليا

وحفظنا كرامة القرآن

ومن هذا الوحي بالذات ، يخصص نزار القسم الاخير من قصيدته لادانة تقصير العرب في دعم مصر ومدّها بما تستطيع ان توصل به رسالتها العربية .

اما سعيد عقل ، فلا يذكر من مصر الا تمثال نفرتيتي المذهب والهيكل .. وهذا طبعا من تاريخ مصر، ولكنه جزء يسير من هذا التاريخ . وهو بالتالي تشويه للتاريخ الحقيقي ، لانه اسقاط لتاريخ مصر العربي ولحضارتها العربية . والواقع ان سعيد عقل لا يني ينكر صراحة اي تاريخ عربي لاي بلد عربي ، تستوي في ذلك مصر ولبنان . وقد سبق له ، اثر زيارة منذ بضعة اشهر للقاهرة بدعوة من وزارة الثقافة المصرية ، ان طالب وهو على ارض مصر بما سماه « تمصير مصر » كما اشار مندوب جريدة « النهار » في القاهرة آنذاك .

ولكن ، وهو في ذكرى تكريم طه حسين ، الابدع في نتاج صاحب الذكرى ما يحمل التعبير عن ذلك التاريخ العربي والفكر العربي والحضارة العربية ؟ ما الذي كانت ترمي اليه جميع دراسات طه حسين الادبية ؟ وما الذي كانت ترمي اليه « اسلامياته » على الخصوص ؟ اكان يقصد الى تحقير ذلك التاريخ والانتقاص من شأن الحضارة العربية ؟ فلماذا يسقط سعيد عقل هذا كله من حسابه فيشوه تاريخ مصر اذ يهمل الحقبة المتأخرة منه ، وهي التي تمتد حتى ايامنا هذه ، وهي التي تعيش فيها مصر حقيقتها وقيمتها ، في حين ان تاريخ الحقبة المتقدمة التي يتغنى بها سعيد عقل قد باد ودرس ، ولم يبق الا للذكرى ؟

\*\*\*

وبعد ، فهذه هي بعض الخواطر التي اوحت لي بها قراءة القصيدتين . واود ان اختتم هذه الملاحظات بالاشارة التالية :

ان سعيد عقل ، صاحب هذه القصيدة ، يدعو الى هجر الفصحى ، واحلال العامية محلها .  
ونحن اذا نظرنا الى الموضوع نظرة سطحية ، وجدنا في الامر مفارقة وتناقضا .

اما اذا تعمقنا الامر قليلا ، فلن يمتنع علينا التفكير بان مثل هذه القصيدة انما يندرج في الدعوة نفسها والمخطط نفسه : تعقيد الشعر الفصحى الى حد تنفير الناس به وصرف القراء عنه ، وهو بالذات ما تؤدي اليه قصيدة سعيد عقل هذه ..

ولكن الجواب على ذلك ان هذه الدموة صائرة حتما الى الاخفاق لان المؤمنين بها لا يتجاوزون اصابع اليد الواحدة . اما الشعراء العرب الذين يحبون الناس بالفصحى التي تصبح بين ايديهم لغة الحياة الواقعية الحقيقية ، فهم كثيرون . وليس نزار قباني الا واحدا منهم ، وان كان من ابرعهم !